مجلّة تنوير للدراسات الأدبية والإنسانية ISSN 2571-9821
المجلّد: 04 العدد: 01 السّنة: 2020 ص: 52- 69

الدور السوسيو- تعليمي للمؤسسات الثقافية في المجتمع الجزائري خلال الفترة الحديثة من تاريخ الجزائر.

The Socio-educational Role of Cultural Institutions in the Algerian Society during the Recent period of Algerian History.

د. هشام بوبكر *
د. عياشي بلقاسم †

تاريخ الاستلام: O4 / 04 / 2020 تاريخ القبـول: 05 / 06 / 2020

ملخص:

تميزت الحياة الثقافية بالجزائر منذ العصور الإسلامية الأولى إلى غاية الفترة الحديثة بوجود حركة فكرية وعلمية متنوعة، بالإضافة إلى بروز مؤسسات ثقافية كان لها دورا تثقيفيا وتعليميا داخل أوساط المجتمع الجزائري في مراحل تاريخية مختلفة، حيث حرصت على أداء وظيفتها وفق متطلبات ظروف كل عصر، ولعل أهم وظيفة مارستها هذه المؤسسات هي وظيفة التعليم أو ما يمكن أن نعبر عنه بالحركة التعليمية، لذلك سوف نحاول من خلال هذه الدراسة إبراز الدور التعليمي لهذه المراكز الثقافية وفي مقدمتها المساجد والكتاتيب والزوايا والمدارس والأوقاف، دون أن ننسى الطرق الصوفية ودورها في نشر التعليم داخل المجتمع الجزائري خصوص في أواخر الفترة العثمانية.

الكلمات المفتاحية: المؤسسات الثقافية، حركة التعليم، الحواضر الثقافية، الحياة الفكرية.

Abstract :

The Cultural life in Algeria has characterized by the presence of diverse intellectual and scientific movement from the early islamic eras until the modern period. In addition to the emergence of cultural institutions which had played an educational and cultural role within

* جامعة 20أوت 1955-سكيكدة. Hichemboub@ gmail.com
† جامعة 20أوت 1955-سكيكدة.† ayachiz1@yahoo.fr.

the Algerian society in different historical stages. As a matter of fact, those institutions were keen to perform their job according to the requirements of each era. Essentially, education or what we can refer to it as « the eductional movement » serves one of the moste significant job exercised by these institutions. Thereby, the study aimed at highlighting the educational role of these cultural centers namely; the mosques, pamphlets, corners, schools and endowments, as well as the Sufi methods and their role in spreading education within the Algerian society, especially in the late ottoman period.
Key words: cultural institutions, the education movement, the cultural urbanization, intellectual life.

1.مقدمة:

تعتبر المؤسسات الثقافية أداة من أدوات نشر الثقافة والمعرفة في مجتمع من المجتمعات، حيث بإمكان هذه المؤسسات أن تلعب دورا أساسيا في نقل المعارف وتجديدها، وهذا إذا توفرت البيئة المناسبة لذلك، وهي عبارة عن أماكن للتعليم والتربية واكتساب المعارف الدينية والدنيوية.

بدأت المؤسسات الثقافية بالجزائر و بلدان المغرب العربي الأخرى في الظهور منذ القرن الأول الهجري (السابع الميلادي)، عندما وصل إليها الإسلام على أيدي الفاتحين المسلمين الأوائل، وكان المسجد هو النواة الأولى لهذه المؤسسات، ثم ظهرت بالتدريج مؤسسات أخرى شاركته في رسالته وخففت عنه بعض الأعباء، وهي المدارس العلمية والكتاتيب القرآنية والزوايا والمعمرات.[1]

فالتطور النسبي والعددي الذي عرفه المجتمع الجزائري في مجال الثقافة العربية الإسلامية؛ مرده بالدرجة الأولى إلى مختلف المؤسسات الثقافية التي عرفتها الجزائر منذ العصور الإسلامية الأولى وصولا إلى الفترة العثمانية، حيث تولت مهمة نشر الدين الإسلامي والتعليم العربي؛ الأمر الذي دفع الكثير من المفكرين على وصف ما كان عليه المجتمع الجزائري من مستويات فكرية، ومنهم حمدان بن عثمان خوجة الذي قال:" أن طاقات فكرية كانت تكمن في أوساط المجتمع الجزائري، وأن خيال الجزائريين خصب وأفكارهم منظمة، فقد كانوا يعتنون بالعلوم والآداب فكان منهم الشعراء وأساتذة في التاريخ ومشرعون.[2]

2. المؤسسات الثقافية في المجتمع الجزائري بين الأولوية و كثافة الانتشار:

عرفت المراكز الثقافية انتشارا كبيرا في المدينة والريف على السواء، فقد كانت منتشرة في الحواضر الكبرى كقسنطينة وتلمسان بالإضافة إلى مدينة الجزائر، حيث يلتقي ويتبادل من خلالها الأفراد والجماعات مختلف الأفكار، فالماضي الثقافي لمدينة تلمسان وتراث مدينة ندرومة، وفيما بعد مازونة و مستغانم ومعسكر باعتبارها تمثل مدن بايلك الغرب، يشرح لنا الأدوار التي قامت بها هذه المراكز في التأثير والتأثر.[3]

لقد استفادت هذه المدن من تراث الأندلس وذلك عن طريق الهجرات البشرية التي عرفتها المنطقة، حيث تلقت المنطقة أكثر من غيرها على مستوى الإيالة نتيجة القرب الجغرافي، ثانيا تأثرت المنطقة بالحياة الثقافية التي كانت سائدة بالمغرب الأقصى، وأخيرا المشاركة والمساهمة بصفة فعالة في الرحلات جنوب – شمال- شرق- غرب، حيث المبادلات المختلفة التي عبرت المنطقة وما لها تأثير على المجال الحضاري[4].كما أن وجود مراكز ثقافية وعلمية على مستوى الوطن العربي- الأزهر والزيتونة والقرويين- قد أثر في مدارس حواضرنا ونخبتها المثقفة، سواء عن طريق الاحتكاك بخريجي هذه المعاهد عبر رحلات الحج، أو عن طريق تشجيع منها للحركة العلمية.[5]

وقد حدد صاحب كتاب التحفة المرضية هذه المؤسسات في سبعة مراكز كل منها يقوم بوظيفته التي أسندت إليه أحسن قيام حسبما تتطلبه ظروف العصر، وتقتضيه قوانين إقليم القطر وعوائد السكان.[6]

المركز الأول: كتاتيب القرآن وقد خصصت لاستظهار كتاب الله العزيز، وهي أول محل يتلقي فيه الطفل الحروف الهجائية بواسطة اللوح المصلصل، والقلم القصبي، وتكون هذه الكتاتيب – غالبا- في أضرحة الأولياء وفي الدكاكين.

المركز الثاني: الزوايا وقد كانت الزوايا تحتل مكان الصدارة بين مراكز الثقافة من ناحية تثقيف المعوزين والفقراء من أبناء الشعب.

المركز الثالث: المساجد وقد كانت – فيما عدا أوقات الصلاة – مرتعا لحلقات الدروس اليومية ومختلف العلوم التي كانت تدرس في ذلك العهد لاسيما في المدن والقرى.

المركز الرابع: المدارس وهي أمكنة خصصت لإلقاء الدروس بها، ولا توجد إلا في المدن الرئيسية مثل: قسنطينة، الجزائر، بجاية، وهران ، تلمسان التي بها مدرسة سيدي أبي مدين، والتي قرأ فيها ابن خلدون ودرس فيها أيضا.

المركز الخامس: الدكاكين التجارية، التي كانت تستعمل نهارا للبيع والشراء وفي الليل للمسامرات الأدبية.

المركز السادس: الأندية المنزلية وهي التي كانت تقام في منازل وجهاء البلاد، وأعيان ذوي النفوذ والسلطة المحلية؛ وقد استمرت هذه العادة إلى عهد الاحتلال الفرنسي.[7]

المركز السابع: المكتبات العامة والخاصة وهي التي كانت تضم أشتات المخطوطات، وقد كانت هذه المكتبات العامة موزعة على القطر الجزائري حسب أهمية الأماكن، من حيث الثقافة والاعتناء بتدريس العلوم لاسيما المدن، مثل الجزائر العاصمة و قسنطينة و تلمسان و مازونة ويقول بول قافاريل Paul Gaffarel: " و كان أهل قسنطينة مولعين باقتناء الكتب والبحث عن نفائس المخطوطات"، أين وجدت فرنسا عند دخولها لمدينة قسنطينة 17 مكتبة. وبالتالي كان اهتمام الجزائريين بهذه المراكز كبيرا؛ إذ كانت المدن الجزائرية مثل قسنطينة تضاهي في بعض الفترات مدينة كل من فاس والقاهرة من حيث العلماء والتعليم، إذ كانت مساجدها وزاياها وبيوتها الكبيرة تعج بالمكتبات التي تحتوي على كتب المشارقة و الأندلسيين بالإضافة إلى التآليف المحلية[8].لعل أهم هذه المراكز الثقافية الزاويا؛ فقد كانت ثقافية متعددة المهام، إذ كان لها دور علمي وديني واجتماعي وسياسي في المجتمع الجزائري.[9]

3. انتشار الزوايا في المجتمع الجزائري و دورها الثقافي:

كانت الزوايا في العهد العثماني منتشرة في الريف والمدينة، منها ما ينتسب إلى ولي فيكون بها ضريحه، ومنها التي تنتسب إلى طريقة من الطرق الصوفية، وقد شبه الكتاب الأوروبيون هذه الزوايا بجامعات أوروبا في العصور الوسطى، ولعل من أشهر الزوايا التي عرفتها الجزائر خلال هذه الحقبة نذكر الزاوية " الراشدية"، "زاوية القادرية " بالقطينة غرب الجزائر، و زاوية قرومة في بلاد القبائل الكبرى، ثم زاوية ابن علي الشريف في منطقة بجاية، وزاوية عين ماضي وزاوية طولقة بالصحراء، وقد تحدث الجغرافي و الرحالة الإنجليزي " شو" عن بعض الزوايا فقال:" أن زاوية جماعة الصهريج ببلاد القبائل، يدرس بها خمسمائة من الطلاب وتتولى الإنفاق عليهم، كما أن زاوية نقاوس تنفق على مائتي طالب"[10]. وتجدر الإشارة إلى أن غالبية أعلام الجزائر من العلماء في هذا العهد تتلمذوا في هذه الزوايا أمثال: عبد الرحمن باش ترزي في قسنطينة، وابن عزوز في برج طولقة، بالإضافة على سعيد قدورة و أبوراس الناصري وغيرهم من علماء الجزائر.

والزوايا نوعان:

مجلّة تنوير للدراسات الأدبية والإنسانية ISSN 2571-9821
المجلّد: 04 العدد: 01 السّنة: 2020 ص: 52- 69

1.3 **النـوع الأول:** نـوع خلـواتي يـدعي شـيوخها المعرفـة بأسـرار دينيـة غيبيـة خاصـة القـدرة علـى تلقينهـا لأتبـاعهم، الـذين يلقبـونهم "بالمريـدين" و"الإخـوان" و" الفقراء" حسب اختلاف الجهات والمناطق، ويقوم شيخ الزاوية بمهمة التعليم بنفسه إن كان مثقفا، وفي حالة العكس يوظف من يقوم بالمهمة بدله ويحمل نوابـه ألقـاب " المقـدم" ،" الوكيـل"،" النقيـب" و" الخليفـة" حسـب اخـتلاف الجهات.

2.3 **النـوع الثـاني:** غير خلواتي لا يدعي شيوخها معرفة أسرار دينية معينة، ويمكن اعتبار هذا الصنف من الزوايا بمثابة كتاتيب قرآنية. وكثيرا ما يكون لهذه الزوايا بنوعيها خاصة الخلواتية، فروع كثيرة داخل البلد وخارجه.

أمـا مـن حيـث دور وأهميـة الزوايـا، فقـد لعبـت الزوايـا الدينيـة بمختلـف أنواعهـا، أدوارا كبيرة في الحيـاة الدينيـة والثقافيـة والاجتماعيـة، بـل وحتى السياسـية بـالجزائر وأغلبها إيجابي والبعض سلبي.[11]

أما من حيث الناحية الإيجابية فقد:

- اهتمت بتحفيظ القرآن ونشره بصورة مكثفة في الأجيال الإسلامية المتعاقبة، وعمقته بين مختلف الطبقات الاجتماعية.
- احتضـنت اللغـة و الثقافـة العربيـة الإسـلامية ونشـرتها بشـكل واسـع و فتحـت أبوابهـا لطلاب العلم و المعرفة.
- عملـت علـى نشـر الإسـلام في المـواطن و الأصـقاع الـتي لـم يصـل إليهـا خاصـة الأقـاليم الصحراوية النائية كما فعلت التيجانية و السنوسية.[12]
- منحـت للطريقـة سـلطة روحيـة و دينيـة و مدنيـة و قضـائية، وعـن طريقهـا كـان لهـا مـن الولاء الشعبي ما يضاهي بل ما يفوق الولاء العام لنظام الحكم القائم[13]
- عملـت علـى إزالـة الفـوارق الاجتماعيـة بـين الفئـات الاجتماعيـة المختلفـة، فقربـت بـين الأغنياء و الفقراء و العلماء والأميين.
- لعبـت دورا بـارزا في إنهـاء الخلافـات و الخصـومات بـين مختلـف الفئـات و الطبقـات الاجتماعية.
- كانـت هـذه الزوايـا بمثابـة مخـازن ودواويـن للكتـب و المخطوطـات في مختلـف العلـوم و الفنـون، و ذلـك بفضـل اهتمـام شـيوخها و أتباعهـا بـالعلم و التعلـيم و النسـخ و النقـل و

التأليف و الجمع، غير أن معظم ما بها من تراث تسرب إلى البلدان الأوروبية خلال فترة السيطرة الاستعمارية على الجزائر.

- شاركت هذه الزوايا مشاركة فعالة في مقاومة نظم الحكم، و قد ظهرت في شكل ثورات ضد رجال الحكم العثماني في غرب ووسط و شرق البلاد، كثورة درقاوة في الشرق بقيادة ابن الأحرش، وكذا ثورة الزبوشي الرحماني (1810) في رجاس (ميلة) و الذي قتل عثمان باي عام 1804م.[14]

و في المقابل كما كان للزاوية دور إيجابي كان لها دور سلبي.

أما الدور السلبي للزاوية فيتمثل مجمله في:

- اتبعت هذه الزوايا أساليب عتيقة و مناهج مختلفة و تمسكت بتقاليد بالية لم تكن تتلاءم مع التطورات الحديثة التي صحبت النهضة الأوروبية الحديثة، ومن هنا ساد التخلف الذهني و الاجتماعي بين أتباعها الكثيرين.

- انتشرت الدروشة و الخرافات و الأباطيل و البدع الدينية[15]، و من ثم تكون قد ساهمت في عدم تكوين رأي شامل ومتقارب أو موحد، مثلما تكون قد شجعت الإقبال على العلوم التقليدية النقلية من دون العلوم الأخرى، و هذا الوضع أثر في السياسة الفرنسية فيما بعد؛ حيث تفطنت إلى ضعف البنية الذهنية الجزائرية المحكومة إلى هذا المستوى الثقافي السكوني الذي تزعمته الزاوية، ومن ثم كان دورها بحق تراثيا.[16]

وقد كانت للزاوية علاقة وطيدة بنظام الأوقاف كون العديد من الميسورين وأصحاب العلم، قاموا ببناء زوايا خاصة بهم، ومولوها بالأموال وخصصوا نصيبا للشيوخ فيها والمقرئين، و كانت عنوانا عن تضامنهم الاجتماعي وحبهم للعلم والمعرفة ومحاربتهم للجهل والفقر، والأمثلة عديدة عن زوايا كثيرة نشأت؛ فنجد أن مدينة قسنطينة مثلا احتوت على العديد من الزوايا كزاوية سيدي عبد المؤمن، وزاوية سيدي مخلوف وزاوية أولاد الفكون، وزاوية رضوان خوجة وغيرها، وقد أخرجت هذه الزوايا ومثيلاتها كثيرة في بجاية وتلمسان والجزائر العاصمة العديد من المتعلمين، كرباطات يرابط فيها المقاومون، ولهذا فالزوايا انتشرت بكثرة في العهد العثماني لانتشار الطرق الصوفية.[17]

4. المساجد بين العمل التربوي والتوعوي في المجتمع الجزائري:

لقد اهتمت الحواضر قبل دخول العثمانيين بمساجدها التعليمية، و انفردت كل حاضرة بجامعها الأعظم الذي كان يمثل معهد التعليم المتوسط والعالي كالجامع الأعظم بالعاصمة والجامع الأعظم بمدينة تلمسان، وجامع بجاية وجامع قسنطينة، وقد اهتم

العثمانيون في الجزائر كأفراد ببناء المساجد بترشيدها وتأمين الموارد لصيانتها، والإنفاق على إقامة الشعائر الدينية فيها، فقد قدر "هايدو" الإسباني عدد المساجد في مدينة الجزائر سنة 1581م ب100 مسجد، بينما لم يكن عددها يتجاوز اثنين قبل دخول الأتراك ويعني؛ أنهم شيدوا هذا العدد الهائل من المساجد في خلال ثلثي قرن فقط.[18]

أما قسنطينة فقد بلغ عدد المساجد بها 75، منها 05 مساجد كبرى و70 جامعا صغيرا و13 مدرسة قرآنية استحدث لها الأتراك نظاما دقيقا يتقيد به المدرسون والطلبة، ويخضع له العاملون بأماكن الدرس والعبادة حتى تؤدي دورها الثقافي والتعليمي على أحسن وجه. [19] ويذكر المؤرخ العربي الزبيري أن قسنطينة وحدها كانت تشتمل على اثنين وأربعين مسجدا للتعليم الثانوي يدرس فيها ما بين ست وسبعمائة تلميذ.[20]

وذكر صاحب كتاب أم الحواضر أن مدينة وهران هي الأخرى عرفت آثار إسلامية كانت منتشرة بأحياء المدينة القديمة، وأهم هذه الآثار المساجد، والتي من أبرزها نذكر: جامع محمد الكبير الذي تأسس عام 1206هـ الموافق ل1791م و جامع سيدي هواري و جامع باشا أسسه حسن باشا آخر بايات وهران في عام 1210 هـ الموافق ل1796م.[21]

ولهذا فللمسجد وظيفة أساسية تكمن في تحفيظ القرآن الكريم وتعليم الفروض الدينية وبعض العلوم الإسلامية، ومعرفة شؤون الناس وعلاج مشاكلهم وقضاياهم اليومية [22]، والمساجد ثلاثة أنواع:

1.4. **النوع الأول** مما أسسه الحكام والأمراء والولاة كجزء من عملهم الوظيفي؛ لخدمة المجتمعات الإسلامية وتيسير سبل أداء شعائرهم الدينية ولكسب عطف الرعية و لربما الشهرة كذلك، ومن ضمنها بالجزائر جامع بن مروان، وصالح باي بعنابة، وجامع الباي بقسنطينة، والجامع الكبير بالعاصمة، والجامع الكبير بتلمسان والجامع الكبير بندرومة.

2.4. **النوع الثاني** أسسه كبار الأثرياء للتقرب إلى الله واستمالة بعض الفئات الاجتماعية وشيوخ الدين لكسب الشهرة كذلك، وأعداد هذا النوع كثيرة بالجزائر ومن ضمنها: جامع سيدي لخضر بقسنطينة، سيدي رمضان، وسيدي عبد الرحمن الثعالبي بالجزائر العاصمة وسيدي الصوفي ببجاية، سيدي الحاوي وأبي مدين بتلمسان.

3.4. **نوع ثالث** مما أسسته الهيئات والجمعيات الخيرية والدينية وإن كان هذا ينطبق على فترة ما بعد الوجود العثماني[23]، وهي تكملة لعمل الولاة وكبار الأثرياء وشيوخ الدين.

وبالتالي نستطيع القول أن للمسجد وظيفتين: وظيفة دينية وأخرى تعليمية، فبالرغم من ظهور المدارس وانتشارها مشرقا ومغربا إلا أنها لم تستطع أن تنافس المساجد أو تقلل من قيمتها العلمية، وإنما تعايش الاثنان جنبا إلى جنب للاضطلاع برسالة التربية والتعليم في العالم الإسلامي.

5. المدارس وبعدها التعليمي والتربوي:

تأسست بالجزائر قبل العهد العثماني عدة مدارس حظيت بشهرة كبيرة، وقد أشار إلى بعضها الرحالة المغربي حسن الوزان فذكر أن تلمسان كان يوجد بها خمس مدارس حسنة التصميم[24]، مزدانة بزخارف الفسيفساء وأنه شاهد في بجاية عددا آخر من المدارس، كما شاهد في قسنطينة مدرستين وقد عرف "أبوراس" الناصري المدرسة بقوله: " المدرسة المتعارفة عندنا الآن هي التي تبنى لدراسة العلم؛ أي لتعليمه وتعلمه "[25] وقد لعبت المدارس في المدينة نفس الدور الذي لعبته الزوايا في الريف خلال العهد العثماني، فهي تزود الدولة بما تحتاج إليه من قضاة ومفتين وغيرهم من الموظفين، ويعين المدرسون فيها من طرف الداي باقتراح من مدير الأوقاف، والكثيرون منهم يجمعون بين وظيفة التدريس والإفتاء والقضاء.[26]

كما عرفت هذه المدارس ثلاث مراحل من التعليم الابتدائي ثم الثانوي فالعالي، هذا الأخير الذي لم يكن مهملا في عهد الجزائر العثمانية، فقد كان له نظام خاص يتكفل به مجلس بعاصمة الجزائر مؤلف من المفتيين المالكي والحنفي ومن القاضيين المالكي والحنفي، وكان ذلك المجلس يعين ناظرا يقوم على التدريس ويقدم للداي بالجزائر وللباي بقسنطينة وبوهران العلماء المترشحين لكراسي التدريس[27]، ومكانة المجلس بمقام المجلس الأعلى للجامعات العصرية.

أما من حيث المدارس التي عرفتها الجزائر خلال هذه الفترة، فقد كان بعاصمة الجزائر عدد لا بأس به من المدارس: مثل مدرسة سيدي أيوب بالقرب من الجامع الجديد، ومدرسة حسن باشا في جوار جامع كتشاوة، ومن المدارس التي اشتهرت بحاضرة قسنطينة المدرسة الكتانية، ومدرسة سيدي الأخضر، ونظيرتها بالناحية الوهرانية كمدرسة مازونة التي نالت شهرة كبيرة منذ تأسيسها في القرن الحادي عشر للهجرة.[28]

وجرت العادة أن تؤسس هذه المدارس بجوار المساجد نظرا للصلة الوثيقة بين الدين والعلم، ولكن هذا ليس شرطا، غير أن كل مدرسة لا بد أن يؤسس داخلها بيت للصلاة(مسجد). وتنوعت العلوم والمعارف التي تدرس بها إلى ثلاثة أصناف:

مجلّة تنوير للدراسات الأدبية والإنسانية ISSN 2571-9821
المجلّد: 04 العدد: 01 السّنة: 2020 ص: 52- 69

- العلوم الدينية مثل تحفيظ القرآن وشرحه وتفسير الحديث وتعليم الفقه والتوحيد والمنطق والأصول.
- علوم اللغة والأدب كالنحو والصرف والبلاغة و العروض والقوافي وقواعد الإنشاء باعتبارها أداة ووسيلة لإتقان العلوم الدينية[29]
- العلوم الطبيعية والتجريبية؛ كالفلك والحساب والطب وغيرها....إلخ.

ولهذا لا يختلف منهاج الدراسة في الزاوية عنه في المدرسة أو المسجد[30]، ولكن رغم كل هذا يمكن أن نستنتج بعض الفروق الموجودة بين المدرسة والزاوية منها:

- ✓ أن الزاوية هي بديل متطور للرباط في العصور الأولى للإسلام بهذه البلاد، انتشرت في الجبال والسهول والواحات، أما المدرسة فهي مؤسسة علمية انتشرت أساسا في المدن.
- ✓ الزاوية مؤسسة حرة بينما تصطبغ المدرسة بشكل أو بآخر بالصبغة الحكومية.
- ✓ ومن الفروق أيضا أن الزاوية تعتمد في مواردها على الأوقاف التي حبسها عليها الحكام وتديرها الحكومة بشكل مباشر أو غير مباشر.
- ✓ الزاوية تضطلع إلى جانب وظيفة التعليم بنشاطات أخرى في مختلف نواحي الحياة، بينما تقتصر المدرسة على التعليم فقط.[31]

ولكن رغم هذا الاختلاف والتباين القائم بين المؤسستين إلا أنهما يشتركان في أداء رسالة واحدة تمس عمق المجتمع الجزائري، كما أن الحركة التعليمية التي عرفتها الجزائر خلال العهد العثماني لم تكن مقتصرة على الزوايا والمساجد والمدارس فقط، وإنما شهدتها مؤسسات أخرى كالكتاتيب.

6. الكتاتيب والحفاظ على الهوية الوطنية الجزائرية:

بدأت هذه الكتاتيب في الظهور منذ صدر الإسلام وانتشرت في سائر البلاد الإسلامية، منها الجزائر وبلدان المغرب التي تطورت فيها تطورا كبيرا وواسعا في العصر الحديث، وانتشرت أكثر في عهد الاستعمار الفرنسي خلال القرنين 19 و20 كأسلوب ووسيلة لمواجهة سياسة التنصير و التمسيح الفرنسي وحماية الشخصية العربية الإسلامية للجزائر.[32]

وقد كان هذا النوع من المؤسسات التعليمية (الكتاتيب) منتشرا في طول البلاد وعرضها.[33]

وهي موجودة في كل الحواضر والقرى بصورة مكثفة ويطلق عليها في الجزائر اسم المسيد [34]،كما أن هذه المؤسسة أدهشت القادة الفرنسيين عقب احتلالهم للجزائر، إذ كتب الجنرال دوماس DOUMAS في تقرير له في هذا الصدد، يقول " إن التعليم الابتدائي في الجزائر كان أكثر انتشارا مما يتصوره الإنسان، عموما فاتصالاتنا بالأهالي في الأقاليم الثلاثة أظهرت بأن نصف السكان من الذكور يعرفون القراءة والكتابة"، وقد علقت على ذلك السيدة " ألفون" صاحبة كتاب القراءة والكتابة" فإنهم جميعا قد مروا بالمدرسة الابتدائية (الكتاب) وكانوا يستطيعون قراءة القرآن في صلواتهم، فكل القبائل وكل الأحياء في المدينة كان لها قبل الاحتلال الفرنسي مدرسة ومعلم.[35]

ويرتكز منهاج التعليم في الكتاتيب على تعليم القرآن والكتابة واستظهار كتاب الله، يضاف إلى ذلك أحيانا تعلم مبادئ الحساب، أما طريقة التعليم المتداولة فهي لا تعدو أن تكون تمارين للذاكرة على الحفظ وشحذ حاستي السمع والبصر والتدريب على صناعة الخط والزخرفة.[36]

ومعظم هذه الكتاتيب القرآنية في الجزائر بسيطة المظهر والمبنى قليلة الإمكانيات المادية تعتمد أساليب تقليدية، وإن كان رغم كل هذا فإن دورها مهم جدا في المحافظة على القرآن الكريم وعلى الطابع الإسلامي العربي للجزائر.

7. البعد الاجتماعي لمؤسسة الأوقاف:

اهتم العثمانيون في الجزائر بالأوقاف فاتسع نطاقها و تعددت المؤسسات الوقفية التي تشرف عليها، إذ يذكر "حمدان خوجه" في كتابه المرآة "..أنه تم إنشاء مؤسسات خيرية وأوقاف حسب الشريعة الإسلامية من أجل تحسين الأوضاع والتخفيف من المعانات؛ فالشريعة الإسلامية تعتمد على مبادئ حضارية وإسلامية وجميع الممتلكات في الأرض هي ملكا لله وما تمتعنا فيها إلا وقتي وزائل، ولهذا أصبحت الأحباس تعود بالفائدة الكبيرة على المحتاجين، وواقف عليها كل طبقات المجتمع في ذلك العصر"[37]. كما شمل الوقف المساجد والمدارس والملاجئ و المشافي والمكتبات والحصون وطلبة العلم[38] ، وهذا من خلال التكفل بطلبة العلم من حيث المأكل والمشرب ومصاريف الإيواء والدراسة.

8. الطرق الصوفية و التربية الروحية في المجتمع الجزائري:

تعتبر الطرق الصوفية مؤسسة ثقافية قائمة بذاتها، حيث عرفت الجزائر خلال العهد العثماني إلى جانب المؤسسات المذكورة انتشار الطرق الصوفية، وكان جل المنخرطين في الطرق الصوفية من حفظة القرآن وممن لهم مبادئ فقهية وعقائدية[39]، لقد احتلت

مجلّة تنوير للدراسات الأدبية والإنسانية ISSN 2571-9821
المجلّد: 04 العدد: 01 السّنة: 2020 ص: 52- 69

الطرقية مكانة هامة في المجتمع الجزائري من حيث مساهمتها في تفعيل الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، التي عرفتها الجزائر خلال العهد العثماني، وسنركز في هذا المقام على الدور الثقافي الذي لعبته هذه الجماعات الدينية لقد عرفت الجزائر في العصر الذي ندرسه إلى جانب التصوف الفردي التصوف الجماعي، أو ما يمكن أن نسميه بالتصوف الشعبي ممثلا في الطرق الصوفية وبظهور هذه الطرق، لم يعد إلا عدد قليل يمارس التصوف بمفهومه القديم أي الإنعزال والتعبد.[40]

وقد ظهرت الطرق الصوفية في الجزائر في بداية القرن 16م ثم أخذت تنمو في هذا القرن، ثم انتشرت على نطاق واسع في النصف الثاني من القرن 18م والربع الأول من القرن 19م.[41]

ومهما يكن فالطرقية كانت تنتشر عبر أنحاء الوطن إلى درجة أن البعض عددها بست عشرة طريقة منها ثلاثة عشرة طريقة تنتمي إلى الشادلية[42]، كما أورد الضابط "لويس رين" أن للشاذلية وحدها 21 إحدى وعشرين طريقة وزاوية فرعية لكل منها إسم خاص، وذلك في كتابه المرابطون والإخوان[43]. وإلى جانب الطريقة الشاذلية نجد الطريقة القادرية والتجانية والدرقاوية التي انتشرت في الجزائر حسب رأي الأستاذ والباحث عميراوي[44]، الذي يرى أن أغلب هذه الطرق كانت قبل مجيء الاحتلال الفرنسي طرقا صوفية بالاسم لا بالممارسة، الأمر الذي يمكن أن يفسر به سبب ميل بعضها إلى الصف الفرنسي فيما بعد نتيجة ابتعادها عن التصوف الحقيقي.[45]

كما أن أغلب هذه الجماعات الدينية تختلف فيما بينها في الشكل وتتفق في المضمون بإنتمائها للدين الإسلامي السني.[46] وقد تعايشت الطرق الصوفية في بداية نشأتها مع المرابطين، مظهرة احترامها لما اكتسبوه من نفوذ ثم أخذت تحل شيئا فشيئا محلهم حتى أدمجتهم فيها كلية تقريب.[47] كما لم يجد الأتراك بدا من التعامل مع الصوفية والطرقية ولم يجدوا صعوبة في ذلك إذ لم تكن الحركة الصوفية غريبة عنهم.[48]

ومهما يكن فقد كانت كل من الرحمانية والقادرية والطيبية والتجانية والزيانية الأكثر انتشارا في معظم المناطق الجزائرية، في عين البيضاء وطولقة وجرجرة وسوق أهراس .. إلخ، وكانت زواياها متواجدة في كل الأنحاء سواء للتعليم أم للإطعام أ م لتقبل الهدايا.[49]

وقد اهتمت الطرق الصوفية بالتربية الروحية والتعليم ولكن بعضها أعطى أهمية أكثر لنشر التعليم كالطريقة الرحمانية، ولذلك كثرت الزوايا التعليمية لهذه الطريقة، بينما نجد الطريقة الدرقاوية والشاذلية وكذلك التيجانية أعطت أهمية لتربية الجماهير من الناحية الروحية.[50]

لقد عملت الجماعات الدينية على ملء الفراغ في المجتمع الريفي الذي كان يتطلب من سكانه إلا قليلا من العمل، وفي عصر كانت فيه الحياة بسيطة لم تكتنفها الحضارة، وفي مجتمع يعيش في عزلة عن حكومته التي لم تكن تولي للسكان أهمية لا من حيث التعليم ولا من حيث التوجيه الديني، فماذا كان يمكن أن يكون عليه حال المجتمع الجزائري على مستوى الريف لولا الطرق الصوفية؟

لقد حققت الصوفية الطرق الوحدة الروحية بين أفراد الشعب وهو ما أهمله الأتراك عن عمد، لأن الوحدة الروحية تتعارض مع سياستهم وتخوفهم من أن تنقلب الوحدة الروحية إلى وحدة وطنية تقضي على سلطانهم .51

كما أن الطرقية لم تجدب إليها الرجال فقط وإنما جذبت النساء إليها أيضا، وخاصة التجانية والرحمانية وذلك لتحقيق أهداف منها:

1.8 إضعاف شأن المرابطين، ذلك أن المرأة بحكم طبيعتها هي العميل الأول للمرابطين، ولكي يتم احتواء الطرق الصوفية للمرابطين، كان لا بد من تجريدهم من العنصر الحيوي المتمثل في المرأة.

2.8 تربية المرأة روحيا وخلقيا وتعليمها مبادئ الدين، وهو ما أعلن عنه مؤسس الطريقة الرحمانية محمد بن عبد الرحمن في رسالة بعث بها إلى الداي، ولعل الذي جعله يهتم بتربية المرأة وتعليمها ما شاهده من انحلال الأخلاق في مجتمع القرية ببلاد القبائل.[52]
وقد أشار إلى هذا الانحلال معاصره الرحالة الحسين بن محمد الورتلاني في كتاب رحلته.

كما استطاعت الطرقية من استمالة العدد من القبائل إليها بعد أن كانت هذه القبائل تميل بدرجة كبيرة للمرابطين الذين كان اغلبهم في خدمة " الوجاق" بهذا الميل يمكن الحكم على القبائل بالتطور، وبالتالي التطلع إلى أفق أوسع من أفق المرابط، وبالتالي تعد الطريقة من جانب آخر عامل توحيد لأكثر من قبيلة بل لأكثر من موطن،[53] وعلى هذا الأساس أصبح لشيخ الطريقة نفوذا أوسع في أوساط المجتمع من نفوذ شيخ القبيلة وأوسع من نفوذ الباي.[54]

والشيء الملاحظ على الطرقية أنها اتخذت الوسط الريفي مجالا لنشاطها، وذلك لأن الريف يعد مجالا صالحا لنشر دعوتها، وكسب الإتباع بحكم المستوى العقلي لسكان الريف وفي الوقت نفسه، كانت بمنأى عن مركز الحكم وبعيدا عن رقابة السلطات التركية.[55]

وقد استعملت الجماعات الدينية عدة أساليب ووسائل لجذب الناس إليهم، وتعتبر هذه الوسائل السبب الرئيسي في إقبال الجزائريين على الانتماء على الطرق بكثرة وبالتالي انتشارها، ومن بين هذه الأساليب ما أذاعه شيوخ الطرق عن أنفسهم من ادعاءات تذهل عقول السذج والبسطاء فيتقبلونها بكل ثقة وإيمان، لذلك كانت الكثرة الغالبية من المسلمين تنظر إلى هؤلاء "الإخوان " وخاصة شيوخهم كنفوس عزيزة وعلى اتصال عميق بالقوى الروحانية،[56] كما ينظرون إلى ما يأتونه ويفعلونه كسر خفي على كل مسلم يعمر قلبه الإيمان أن ينحني أمامه في صمت، كما فشل حتى بعض العلماء ورجال الدين الرسميين في العهد العثمانيين من أضعاف قوة شيوخ الطرق وأضعاف نفوذهم، وليس أدل على هذا من ثورة أتباع الطريقة الرحمانية على العلماء الذين أرادوا أن يوقعوا بالشيخ محمد عبد الرحمن شيخ الطريقة الرحمانية ، فاضطرت الحكومة إلى الإيعاز إلى العلماء بتبرئة الشيخ من الانحراف خشية منها من ثورة أتباعه.[57]

ومن ثم لم ينجح العثمانيون ولا العلماء وحتى المرابطون في الصمود أمام الطرقيين؛ فالطريقة وحدت المجتمع روحيا إلى حد كبير وهو ما عجزت عنه السلطة العثمانية، لأن الطرق الصوفية لها نظام إداري يشبه النظم الإدارية للحكومات لذلك العهد، ولاسيما فيما يتصل بالمناصب وجباية المال وتسخير الأتباع في استثمار الأراضي والعقارات المحبوسة على زوايا الطريقة، وكذا فيما يتصل برعاية الأتباع وتسييرهم أو حكمهم، كما أن للطرق أسرار كأسرار الدولة لم يكن يطلع عليها سوى الذين يتولون شؤونها من رجال الطريقة، بينما لا يوجد شيء من ذلك عند المرابطين.[58]

ولكن بقدر ما كان هؤلاء المرابطون الطرقيون نعمة على المجتمع بحملهم لواء الثقافة والتعليم وفض النزاعات وتوفيرهم للأمن، بقدر ما كانوا أيضا نقمة على المجتمع بما أحدثوه من صراعات محلية فيما بينهم وبنشرهم لشيء من الخرافة والشعوذة في وسط المجتمع الجزائري[59]، مما أدى إلى حدوث صراعات مع طبقة العلماء وكذلك السلطة المركزية.

9. خاتمة:

كانت المؤسسات والمراكز الثقافية منتشرة في كافة أنحاء البلاد؛ في المدن والقرى وفي السهول والجبال وحتى في مضارب القبائل، وما سجله الكتاب الفرنسيون ومختلف المقالات والدراسات والتقارير الصادرة عن مصلحة الاستخبارات العسكرية، يشهد على مدى ما بلغته الجزائر من حيث انتشار التعليم وقلة الأمية، فقد كتب الفرنسي "روزيت" الذي رافق الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830 قائلا :" أن الشعب الجزائري ربما يملك من التعليم أكثر مما يملك الشعب الفرنسي"، ما أجمله الكاتب "روزيت" في تلك العبارة لا يخلو من مغزى ودلالة فصلته التقارير السرية التي كان يرفعها ضباط جيش الاحتلال لرؤسائهم عن حالة التعليم ومعاهده في الجزائر، ولهذا لا أحد ينكر الدور التربوي التثقيفي والسياسي الذي لعبته الزوايا والمساجد والمدارس والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني، وتأثير ذلك على الحياة الفكرية والاجتماعية للمجتمع الجزائري أنداك.

قائمة الهوامش:

1. يحي بوعزيز: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1999، ص127.
2. **حمدان بن عثمان خوجة:** المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق :محمد العربي الزبيري، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر،2006، **ص ص،** 66-67.
3. الواليش فتيحة: الحياة الحضرية ببايلك الغرب، رسالة ماجستير معهد التاريخ، جامعة الجزائر 1994، ص 561.
4. المرجع نفسه: ص 157.
5. المرجع نفسه: ص 157.
6. محمد بن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق محمد بن عبد الكريم، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972، ص 58 .
7. المرجع نفسه: ص 60.
8. أبوالقاسم سعد الله: القاضي الأديب الشادلي القسنطيني، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، الجزائر، 1985 ص 32.
9. احميدة عميراوي: من الملتقيات التاريخية الجزائرية، دار البعث، قسنطينة،2000، ص ص، 31، 32 .

10. العيد مسعود: حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة سيرتا، العدد 3، الجزائر 1980، ص، 63.
11. يحي بوعزيز: مرجع سابق، ص ص، 132، 134.
12. المرجع نفسه : ص134
13. احميدة عميراوي: من الملتقيات التاريخية الجزائرية ، مرجع سابق، ص31.
14. احميدة عميراوي: قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث، دار الهدي عين مليلة، 2005، ص.79
15. يحي بوعزيز: مرجع سابق، ص 135.
16. حمدان بن عثمان خوجة: مرجع سابق، ص، ص 20-21.
17. جميلة معمري: دور الزوايا في مقاومة الجهل و التبشير المسيحي، مجلة الشهاب الجديد، العدد الثالث، أفريل، الجزائر، 1425 هـ 2004، ص 280 .
18. العيد مسعود: حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني، مرجع سابق، ص 64.
19. محمد الهادي العروق: مدينة قسنطينة، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1984، ص 81.
20. .Noudri (André) : Constantine à la veille de la conquête, cahiers de Tunis N° 11,TR 1955.p 386
21. محمد المهدي بن علي شعيب: مرجع سابق، ص ص، 192-19 3.
22. يحي بوعزيز: مرجع سابق، ص 127
23. المرجع نفسه، ص ص ، 127- 128
24. العيد مسعود: حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني، مرجع سابق، ص65.
25. أبو راس الناصري: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تقديم وتحقيق :محمد غانم، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر،2005،ج1، ص 188.
26. إبراهيم مياسي: موقف الإدارة الاستعمارية من تعليم الجزائريين ، مجلة الشهاب الجديد ، العدد الثالث، أفريل، الجزائر، 1425 هـ 2004، ص، ص 293- 294.
27. المرجع نفسه : ص 295
28. المرجع نفسه : ص 295
29. يحي بوعزيز: مرجع سابق، ص 128.
30. العيد مسعود: حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني ، مرجع سابق، ص65
31. يحي بوعزيز: مرجع سابق، ص 129.
32. العيد مسعود: حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني ، مرجع سابق، ص 62.
33. المرجع نفسه: ص 62.
34. المرجع نفسه: ص 62.
35. المرجع نفسه: 1980، ص 62.

36. المرجع نفسه: 1980، ص 62.
37. حمدان بن عثمان خوجة: مرجع سابق، ص ص، 269- 270.
38. ربيع الروبي: مرجع سابق، ص ص، 57-58.
39. ناصر الدين سعيدوني، الشيخ المهدي البوعبدلي: الجزائر في العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، ج4،الجزائر، 1984، **ص 137.**
40. العيد مسعود: المرابطون والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني ، سيرتا ،العدد 10، مجلة يصدرها معهد العلوم الاجتماعية قسنطينة ، الجزائر 1988، ص 10.
41. المرجع نفسه: ص 10.
42. احميدة عميراوي: علاقات بايلك الشرق الجزائري بتونس، دار البحث بقسنطينة ، 2002، ص 30.
43. يحى بوعزيز: مرجع سابق، ص133.
44. عميراوي حميدة: 2002 علاقات بايلك الشرق الجزائري بتونس، مرجع سابق، ص 30.
45. المرجع نفسه: ص 30
46. ادوارد دونوفو: الإخوان، ترجمة وتحقيق كمال فيلالي، دار الهدى، عين مليلة، 2003، ص24.
47. العيد مسعود: المرابطون والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني، مرجع سابق، ص 10.
48. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ص 423.
49. احميدة عميراوي: من الملتقيات التاريخية الجزائرية ،مرجع سابق، ص ص، 32- 33.
50. العيد مسعود: المرابطون والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني، مرجع سابق، ص 14.
51. المرجع نفسه: ص 14.
52. المرجع نفسه: ص 14.
53. احميدة عميراوي: قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث، دار الهدي عين مليلة، 2005، ص 34..
54. المرجع نفسه: ص 29.
55. العيد مسعود: المرابطون والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني، ص 11.
56. المرجع نفسه: ص 12.
57. المرجع نفسه: ص 12.
58. المرجع نفسه: ص 19.
59. احميدة عميراوي: **من الملتقيات التاريخية الجزائرية**، مرجع سابق، ص 33.

قائمة المراجع:

1. إبراهيم مياسي: موقف الإدارة الاستعمارية من تعليم الجزائريين، مجلة الشهاب الجديد ، العدد الثالث، أفريل، الجزائر، 1425 هـ 2004.
2. أبو القاسم سعد الله: القاضي الأديب الشادلي القسنطيني، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، الجزائر، 1985.
3. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، المؤسسة الوطنية للكتاب، ج1، الجزائر، 1985.أبو راس الناصري: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تقديم وتحقيق :محمد غانم، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر،2005،ج1.
4. احميدة عميراوي: علاقات بايلك الشرق الجزائري بتونس، دار البحث بقسنطينة، 2002.
5. احميدة عميراوي: قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث، دار الهدي عين مليلة، 2005.
6. احميدة عميراوي: من الملتقيات التاريخية الجزائرية، دار البعث، قسنطينة، 2000 .
7. ادوارد دونوفو: الإخوان، ترجمة وتحقيق كمال فيلالي، دار الهدى، عين مليلة، 2003.
8. جميلة معمري: دور الزوايا في مقاومة الجهل و التبشير المسيحي، مجلة الشهاب الجديد، العدد الثالث، أفريل، الجزائر، 1425 هـ 2004 .
9. حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق :محمد العربي الزبيري، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2006.
10. ربيع الروبي: الملكية العامة في صدر الإسلام، مركز أبحاث الاقتصاد الإسلامي، جدة، د، ت.
11. العيد مسعود: المرابطون والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني، سيرتا ،العدد 10، مجلة يصدرها معهد العلوم الاجتماعية قسنطينة ، الجزائر 1988.
12. العيد مسعود: حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة سيرتا، العدد 3، الجزائر، 1980.
13. محمد المهدي بن علي شعيب: أم الحواضر في الماضي والحاضر، مطبعة البعث، قسنطينة، 1982.

14. محمد الهادي العروق: مدينة قسنطينة، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1984.
15. محمد بن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق محمد بن عبد الكريم، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972.
16. ناصر الدين سعيدوني ، الشيخ المهدي البوعبدلي: الجزائر في العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، ج4،الجزائر، 1984.
17. الواليش فتيحة: الحياة الحضرية ببايلك الغرب، رسالة ماجستير معهد التاريخ، جامعة الجزائر 1994.
18. يحي بوعزيز: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1999.

.Noudri (André) : Constantine à la veille de la conquête, cahiers de Tunis N° **20**11,TR 1955.